

الدليل النائه

«في قعر الضياع يتلمس كثير من شباب عالمنا الإسلامي طريقهم»

عبد العزيز سالم

أبتاه هل غيري كمثلي في الضياع وفي السؤال؟
أو أنني وحدي زللت فضل بي دربي وطال؟
أبتاه قد ضاع السؤال وما وعيت لك المقال
أبتاه من شتى البقاع ترিশني تلك النبال
أما النصال فلم تزل تجلو الفؤاد بكل حال
وتكاثرت فتكسرت تلك النصال على النصال
أبتاه قل لي ما الجواب؟ وما السؤال؟ وقل: تعال
وامدد يداً وامسح بكفك خاطراً شرب الكلال
كل البرية قد تجافوا والتوت قدم المحال
وصدى السؤال يغص بي وأغص بالماء الزلال

أبتاه قد طار الحمام وأقبلت حمم الحمام
وأرى العيون تنن تبحت في الضياء عن الظلام
وعلى السفين لها جفون قد تشر بها المنام
لكنها رجعت إلى خط الوراء من الأمام
ذابوا من الشمس التي وضحت وطال بها المقام
وأنا أرى ظل الممات يحوم من حول الكرام
أبتاه إني ما رضيت وليس لي سيف يُشام

أنا يا أبي ما كنت أرجو أن أسير بغير زاد

أبتاه إني في طريق حالك بشس الطريق
الصمت يصفع خاطري والنور ليس له بريق
وأنا أرفع ما تنقب من فؤادي بالحريق
هذا جناه علي يم خضته فأنا الغريق
والظل فر فلم يطق صبراً على ما لا أطيع
كيف الخلاص وليس لي قدم ولا كف طليق
فالقيد في قدمي يئن وداؤه عبد رقيق
ولطالما جرت المصاعب والقفار فلا أفيق
لكنني ما زلت أخرج من مضيق في مضيق
ونعيق شر موحش يعلو فيا بئس النعيق

أبتاه قد طال المساء ألا انتهاء لهذا المساء
ما زلت في أحشائه أجلو الغثاء والعناء
ويدي تمس جداره مساً فيعلوها الغثاء
قد لفني بكسائه ومضى ليعتنق السماء
والنجم ليس بصابر حتى يبت له الضياء
لكنه لا زاد فيه ولا لصاحبه غناء
أنا يا أبي ظل ضئيل في المساء له انقضاء
من أين أسعى يا أبي وأنا هباء في هباء؟
لا ذات لي ترنو إلى شيء ولست أرى الهواء
وقوافي ضل السبيل بها فلم تلق الفناء

وبلا دم أصبحت في طرقات أناتي أجوب
أبتاه لا يجدي المكوث ولا السكوت ولا الهروب

أبتاه إني قد شهدت مهانة السير المريز
ولقد رأيت مصارع العشاق في الزمن الضريز
وبصرت آلام الرفاق يؤزها الخطر الخطير
عزفت لهم لحن المينة بالكبير وبالصغير
فعلام يا أبتاه أمكث كالحسير وكالأسير
وأنا أَلُمُّ خواطري من دفتر الماضي الكسير
وأقلَّبُ الصفحات والأيام من حولي تطير
فأنا الأسير وليتني في كف أحلامي أسير
ولعل أرض مشاعري بيدي حقائقها الضمير
ويظل يجلدني السؤال مردداً: أين المصير؟

أبتاه قد غرق الزمان وضاع في ظلي المكان
وأصابع النور التي برقت أضربها الهوان
وتعشرت بظلالها قدم تسير بلا عنان
وتجمدت كل الحروف على متاريس الجنان
وسنا القلوب القاسيات خبا وصخر القلب لأن
وتراكضت في جوفها شعل تقول: الوقت حان
وتهز أسئلة الحياة بوجه من هز السنان
وأنا أكسر يا أبي صوراً عليها الدهر ران
قد عشت في أفيائها قد كان من أمري وكان
والآن قد جلت الشموس فهان ما عندي وبان

ما كنت أرغب أن تمجد أضلعي لحل العناد
لكنه قدر لبست رداءه وله القياد
ونشرت أعواداً له حتى اشتكى مني النفاد
فلكم نقصت وكنت أطلب أن أزيد وأن أزد
جاهدت في السبل البغيضة كلها بئس الجهاد
ما كان يومي يرتدي إلا هتافات تُشاد
فتثلت نفسي ولم يسلم سوى حزن يُعاد
فسواد آلامي يرقق كل ألوان السواد
والنار تشرب من دمي وتبث في بدني الرماد

فأنا الذي زلت به قدم الحظوظ العائرة
وأنا الذي ما زال يركض في ضمير الهاجرة
وأنا الذي آخى الهوان هوى وضيع ناصرة
وأنا الذي أغفى على علل به متجاورة
وأنا الذي ما لاح ضوء للفلاح فبادرة
ورضعت من ثدي المساء مسائلاً متناثرة
حتى متى دربي يطول وفكرتي متقاصرة؟
وإلى متى يشدو فؤادي بالرغاب العابرة؟
أو ليس لي دمع يفيض من المآقي الساهرة؟
أم أنني ما زلت أبحر في محيط الدائرة؟

أبتاه ضيعت الشروق فعشت في زمن الغروب
وظفقت أمسح فكرتي في أرض هاتيك الدروب
ونقشت في ظهر الزمان ضلالتني ولظى الكروب
ورأيت قافلة الهدى لكنني عفت الركوب
فأنا كليل والهدى صعب علي له الوثوب
ولقد أذابني الزمان فكدت في زلي أذوب
ولقد تجرد لي شقاء جاء من كل الضروب
خلفي وبين يدي يركض في الشمال وفي الجنوب

الطفولة والأسرة

في حياة الرافعي وشعره

د. محمد أبو بكر حميد



الرافعي

هل عرف غزارة إنتاج مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠-١٩٣٧) من جهة، ومعاركه الأدبية العنيفة من جهة أخرى، ظن أن الرافعي لم يجد وقتاً في حياته إلا وكترسه للكتابة والأدب، وأيقن أنه كاتب لا يعرف اللين والهدوء؛ إذ أمضى حياته كلها منافحاً عن قضايا الإسلام، ضارباً على أيدي أعدائه بقلمه البتار، الذي لا ينثني، فقد كان الرافعي -رحمه الله- «ناقداً عنيفاً حديد اللسان، لا يعرف المداراة، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه»، كما يقول صفيه وتلميذه الأستاذ محمد سعيد العريان:

«يهاجم خصومه على طريقة عنتره، يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع!» ولهذا عاش الرافعي مهلباً من الأعداء والأصدقاء على السواء.

مثال الأب:

ولكن الذين عرفوا الرافعي في حياته الخاصة، واقتربوا منه ومن أسرته، يجدون عجباً، يجدون هذا الجبل الشامخ يلين رحمة وحباً أمام أسرته، ويجدون هذه العاصفة العاتية تنحني حناناً ورقة وهو يداعب أطفاله، ويحدثنا الأستاذ العريان بأن الرافعي كان في بيته وبين أهله مثال الزوج والأب المثالي الذي تُحترم حدوده ويعطي لكل حقه، وكان إحساس أسرته بالأمانة الكبيرة التي حملها على عاتقه، جعلها تعينه على تبعتها «كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها مكانته الأدبية، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والإطمئنان» على أن هذا كله لم يكن على حساب وقت أولاده، فهناك الوقت المخصص لهم كل يوم حيث يكون فيه الرافعي مثلاً عالياً

للأبوة الخالصة الحانية، ويشهد العريان له بذلك إذ يقول: «وأنا ما عرفت أباً لأولاده كما عرفت الرافعي، إذ يتصاغر لهم ويناغيمهم ويدللهم ويبادلهم حباً بحب، ثم لا يمنعه هذا الحب الغالي من أن يكون لهم أباً فيما يكون على الأباء من واجب التهذيب والرعاية والإرشاد، ناصحاً برفق حين يحسن الرفق، مؤدباً بعنف حين لا يجد إلا الشدة والعنفوان».

وإذا كانت شدة الرافعي وحزمه لا يحتاجان إلى دليل؛ لأن معاركه الأدبية تشهد بها، ولأن كتابه الجليل «تحت راية

معارك الرافعي تشهد

على حزمه وشدته في

الحق، ورقة أشعاره تدل

على أبوته الحانية

القرآن» ذروة سنامها، فإن شخصية الرافعي الأب المرح لا تتجلى إلا في شعره،

وإن دواوين شعره -للأسف- لم يُعَدَّ طبعها منذ طبعها الأولى، أي منذ ما يقرب من تسعين عاماً، فإن هذا الجانب من شخصية الرافعي وأدبه ظل مجهولاً، ولولا أن الأستاذ مصطفى نعيان البدري قد جمع أناشيد الرافعي -ومنها قصائده في أطفاله- ووضعها في ديوان مستقل بعنوان «أغاريد الرافعي» نشر في بغداد سنة ١٩٧٩م، لما بقي شيء من شعر الرافعي في أيدي الناس.

الطائر الغرد:

فموقف الرافعي من أطفاله وسعادته بهم تترقق صادقة في أشعاره ومقطوعاته الكثيرة، التي تجعله واحداً من أكثر شعراء العربية المحدثين غناء للأطفال والطفولة وأعذبهم فهذا هو قلب الرافعي يفيض أبوة وحناناً ورقة، يوم تملأ عليه بيته ابنته البكر «وهيبة» فيشدو مغرداً.

ولي ابنة هي معنى النفس في نظري

وحكمة الفكر والوحي الذي أجدُّ

كأن قلبي يراغ ملّ من يده

فحسّنها لي من نور السماء يدُّ

لا يصبح البيت روضاً للذين به

ما لم يكن فيه هذا الطائر الغردُ

وما يكاد طائر الرافعي الغرد (ابنته وهيبة)، يخطو خطوات في روضه، ويشدو بكلمة «بابا» فيسمع منها الرافعي أعذب الألحان، حتى يهتف محتفلاً بإكمالها لعامين من عمرها.

طفلتني في العمر مَرَّتْ مِنْ سِنِيهَا بَاثْنَيْنِ
ليست فيها غدت تعقل .. إلا ضحكتين
... جتتها يوماً فآلفت عليها قبلتين
وأملت عنقاً آلفتُهُ مِنْ غَمَزَتَيْنِ
فمضت غضبي وقالت: «باي يا بابا باي يا بابا».

وأصبحت كلمة «باي يا بابا» أعذب ما سمعه الرافعي من شعر ولحن، وأصبحت الكلمة السحرية التي تذهب عنه وتبعده عن الهموم.

وأصبح صوت ابنته «وهيبة» عنده أعظم وأجل من كل ما تهيه له الدنيا، وبالفعل وكأن الرافعي -رحمه الله- قرأ ظهر الغيب، فقد كان صوت ابنته «وهيبة» آخر صوت للطفولة سمعه الرافعي في حياته، فقد أصابه الصمم بعد ذلك، وظل صوت «وهيبة» يرن في أذنه كلما نظر إلى طفل أمامه:

لو أتني كل بشرى ملء أنحاء البلاد
لو أتاني السعد يوماً هاتفاً باسمي ينادي
لو سعى بالمدح والتمجيد لي كل العباد
أو شدا في كل أرض بقريضي كل شاد
لم يكن أحلى بسمعي كل ذا من: «باي يا بابا»
نعمة كالبلبل استعلى على الورد فغنّى
قد غدا يذهب في الدنيا العنا لفظك عنّا
وأرى الشعر فنوناً صرت لي منهن فناً
حكمة ما مثلها الحكمة عندي باي يا بابا

السمو النفسي

وقد تعهد الرافعي كل أولاده من بنين وبنات بهذه الأغاريذ يربهم بها ويغرس بها فيهم القيم والذوق والأخلاق والدين، وعلى حد تعبير الأستاذ مصطفى البدري في مقدمة «الأغاريذ» - «يظهر فيها مبلغ السمو النفسي في الأداء عند شاعرنا الرافعي، الذي عاش لأبنائه أباً كريماً، ومربياً فاضلاً، ومعلماً داعياً، ينشدهم ما يحول بأفئدتهم من نداء العواطف وهتاف الخواطر وتعلق بالشعارات الاعتقادية، وكأنها يستجيب لما يتشوقون إليه من فضل وكرم، يُرهي بهم على الأقران».

فهو يسجل تاريخ ميلاد «وهيبة» بالشعر حين يهتف بفرح:

يا عروس الشعر أهلاً ثم أهلاً بالتجنية
يوم ميلادك عيد القلب يا بنتي الحبيبة
قلت في تاريخه: زينت بيتي «يا وهيبة»

وحين توافيه ابنته خديجة يغرد لها الرافعي مدلاً ومعلماً ومربياً بموشحة تقول:

ندى الورد على فُلك كسفت الورد والفُلا
ومن غصنك من ظلك كسفت الغُصن والظلا
فما أحلاك في ذلك ومن علمك الدلا
وكل الحق في كلك فربي يحفظ الكُلا

تصميم النشء يربهم

ويغرس فيهم القيم

والأخلاق والفضيلة

وحب الوطن

فمن فضلك، ومن فضلك أرينا المرأة الفضلى

ويجلس الرافعي يداعب ولده سامي ويهزه في الأرجوحة في أنشودة يتفق لحنها ووزنها مع حركتها التي تدعوه للنوم:

أنعم بها أرجوحة ياسامي تنام فيها أهنأ المنام
في قطعة من روضة الأيام يأوي إليها طائر الأحلام
في وكري النهار والظلام على غصون العمر النوامي
أزهارها ما زلن في الأكمام قامت على ذاك الغدير الطامي
في شاطئ المستقبل البسام كأنها خواطر الأحلام

تحقق أمنيته:

ويبتهل الرافعي ألا يكون ولده ضعيفاً خواراً، بل شجاعاً مقداماً، لا يهزه الثناء ولا صلف الظلمة، ويتخيل الرافعي أن الأرجوحة تهتز فخراً «بالمفتي المقدم» إلى أن يقول مفتخراً بنسب الأسرة، الذي ينتهي إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه:

يا سامياً وأنت في الأقوام من «رافعي» الحكمة في الأنام
من عترة الخليفة الإمام من «عمر» المعز للإسلام
إن جميع السادة العظام أهل العلى والهمم الجسام
ومن أضأوا أفق الدوام لم يولدوا أكبر في المقام
منك ولا في العقل والأجسام فلا تكن أصغرهم ياسامي!

وقد حقق الله أمنية الرافعي في ابنه سامي، الذي حصل على الدكتوراه، وكان وراء عملية التصنيع الزراعي في مصر والعراق والشام والمغرب بإخلاص وصدق، وهو الذي رعى أول مزرعة مثالية في «بهتيم»، مسقط رأس والده، ثم أصبح خبيراً عالمياً في تخصصه قبل وفاته، رحم الله الوالد والولد.

ونظم الرافعي -يرحمه الله- العديد من الأناشيد المدرسية المثبت معظمها في دواوينه المنسية، وكانت معظم هذه الأناشيد استجابة لطلبات خاصة من

المدرسين، أو من أولاده الذين يتابع
تحصيلهم للدروس يوماً بيوم، فقد كتب
نشيد «بنت النيل» لأبنته زينب الأثرية
لديه -لتفوقها الدائم على أقرانها - لتلحنه
لها موجهة الأنشطة بالمدرسة الثانوية، وقد
ألقي النشيد في الحفل السنوي للمدرسة،
وكان مطلعها:

واديها واديها كصفو الندى
يهدينا يهدينا طابع الهدى

وينشد الرافعي في حب مصر،
ويغديها بأعز ما لديه، وهو أمر ينفي تهم
الذين يظلمونه بعدم الولاء لمصر، بسبب
أصله الشامي، فقد ولد الرافعي ومات في
مصر، ولم ينظر إليها إلا أنها محط أنظار
العرب وفي سواد عيون المسلمين:

نرضيك نرضيك يا مصر المنى
نفديك .. نفديك أيا أمنا

ويؤكد الرافعي في جميع أناشيده التعليمية
والتربوية على الصلة الحميمة بين العلم والخلق
والدين:

بالعلم والثبات وبالهدى والدين
وكل آت آت ياربنا آمين

وفي نشيد رائع بعنوان «ليلة الساهر
على الطفل المريض» يعزف الرافعي بحنان
فياض للطفولة والأسرة والأبوة ومطلعها:

يا ليلة عطل فيها المدار

ظلامها فحم وفي القلب نار

وشبهها طائفة كالشرار

ويجي متى يطفئك نهر النهار

ويمضي النشيد يتحدث إلى الطفل
عند النوم والأحلام حتى يصل إلى مرحلة
الدرس والعبرة فيقارن الطفل بالكبار:

يا مضني الطفل بآلامه

ولم يزل في مهد أحلامه
تعدّ ذا الطفل لأيامه

أم هذه تذكرة للكبار

ويتجلى الرافعي ذائباً في الطفولة،
محتشداً بكل مشاعر الأبوة التي امتلأ بها
قلب الشاعر، وينشد قصيدة «ندى الورد»
التي يعتقد الأستاذ مصطفى البدري أنه
كتبها في ابنته زينب الأثرية لديه، ويقول
فيها:

ألا يا حبة الحب وبأإنسانة الأنس
وروح القلب في القلب ومعنى النفس في النفس
ونغر اللؤلؤ الرطب ولحظ الماس في الشمس

الأصل الشامي للرافعي لم

يمثله من الثغني بحب

مصر واختيارها محط

أنظار العرب والمسلمين

يعيش الحسن في شكلك فما أحلى، وما أحلى

ولا ينسى الرافعي الشاعر المربي
صاحب راية القرآن أن يغرس الدرس
الأخلاقي، ويعلي القيم المعنوية على القيم
المادية، ويرى الجمال الحقيقي في عمل
الإنسان وخلقه قبل أي شيء آخر، وأن يزن
الأشياء بميزان الإسلام ويرى الإنسان
والكون والحياة من ذلك التصور:

فكوني دائماً حسناً بأعمالك في الناس
ومن أخلاقك الحسنى أضيء ضوء نبراس
على الألباس ما أثنى كهذا النور في الماس
ومن فضلك من فضلك أرينا المرأة الفضلى

وكثيراً ما يجعل الرافعي من أناشيد
هذه الأبطال وسيلة تربوية لغرس حب
الوطن في قلوب الأطفال.

وكتب نشيداً من هذا الضرب لابنه
عبد الرحمن يقول فيه:

أنت ابن مصر وابني وسعدها وسعدي
أبنيك حين أبنني تفي لها بوعدي
أبنيك من ضميري فلتعطها ضميرك
ولتحني يا صغيري حتى ترى صغيرك

وقد حقق الله أمنية الرافعي في ولده
عبد الرحمن الذي كبر وأصبح من حماة
الوطن.

وكان الرافعي بفراسة المؤمن قد
توسم في ابنه ذلك فدعاه بقوله:

أنت دمي فُضنه للدفع عن بلادك
أكرمه لاتخنه وأجعله من أجدادك

ولكن هذه الأمنية الأخيرة لم تتحقق،
فقد توفي الرافعي قبل أن يرى أولاد عبد
الرحمن الذي كان وقتها يدرس بالكلية
الحربية. ولكن عين الرافعي قرت وهو إلى
جوار ربه حين أصبح عبد الرحمن واحداً
من الضباط الأحرار الذين قادوا ثورة مصر
سنة ١٩٥٢م وتصدر مواجهة العدوان
الثلاثي في شرق القاهرة والسويس سنة
١٩٥٦م وأثمر فيه غرس والده وأثر تربيته
القرآنية فيه.

فيروي لنا الأستاذ مصطفى البدري
أن عبد الرحمن الرافعي صدع بالحق في
وجه عبد الناصر واختلف معه وتركه،
فليس ابن الرافعي الذي تربى أولاده تحت
راية القرآن والذي يقبل بالدنيا عن دينه
ونفسه.

رحم الله الرافعي ونفع بعلمه وأدبه
ومثاله في الخلق والتربية أبناء هذه الأمة